الفصل الثالث

القصر في بيان النبوة

منهجنا :

هدفنا في بيان القصر في أحاديث النبي ﷺ ليس هو اتباع التقسيمات المتشعبة ، ولا حصر التفريعات المختلفة لأقوال البلاغيين ، فهذا ليس هدفاً ، وإنما القصر من واقع البيان النبوي نفسه ، وسنجد انفراده بسمات خاصة تطلبتها أساليب الدعوة ، كما سنجد نحواً من القصر جاء في صياغة لافتة للذهن تعمق المعنى وتظهره في إطار يناسب درجة أهميته ، ثم لترسيخ هذا المعنى بقيمته في أعماق المخاطبين مع صدقه أيضاً في التعبير عن اهتمامات النبي ﷺ بما ينفعل به من معان وقيم ، ولا بأس أن يكون مرتكزنا في العنونة « طرق القصر » وقد سبق منها « التقديم » في فصل « التقديم » .

١- النفي والاستثناء :

الواضح أن المعاني النبوية هي التي تختار أثوابها الفنية المعينة على تمام ظهورها ؛ ولذا سنجد الأسلوب يتلاءم تركيبه مع ما يفيده القصر من قوة :

وأولى الظواهر التى نراها في بعض أحاديث القصر : أن يتقدم نفي بما النافية داخلة على المقصور اسماً نكرة مسبوقة بمن الزائدة التي تؤكد هذا النفي ، ليكون كل لفظ في الحديث لبنة في صرح التأكيد ، كما نرى أن هذا الاسم النكرة عام بمضمونه شامل يصدق على كثيرين ، فوق عمومه بوقوعه في سياق النفي مثل : ما من مسلم ، ما من امرئ ، ما من عامل ، ما من أحد ـ ما من رجل ، ما من نبي ـ ما من ميت ، وقد عددنا من الأحاديث ما زاد على

العشرين مما يثبت هذه الظاهرة[1] الشائعة في بيان النبوة ، ثم إن القصد إلى هذا النفي العام بنفي المفرد النكرة قد يسبقه نفي جنسه ، أو نفي جمعه : ما من الأنبياء من نبي ، ما من الناس من مسلم ، وتقديم الصفة على الموصوف هنا مبالغة في النفي ، وتفسير هذه الحالة : تقديم النفى المؤكد المنصب على كل فرد من أفراد المستثنى منه ، ليكون الإثبات باستثناء شيء من هذا المنفي أقوى أساساً نفياً لكل ريب حول ما يسوقه الحديث من حقائق أو أحكام ، ثم ليصوغها في شكل قاعدة أو قانون عام له قوة الثبات ، ونفاذ الحق ثم الإيماء إلى الذكاء النبوي لأنه يشير من طرف خفي إلى التحري والاستقصاء أو الإعلام من الله بغيب كان خفيًا شاملاً وقويًا .

أغراض النفي والاستثناء :

(١) الترغيب :

عن علي ﷺ عن النبي ﷺ «ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يعشى ، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة»[2] .

عن ابن عباس عن النبي ﷺ : «ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضر أجله : فيقول سبع مرات : أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عوفي»[3].

وفي الأول دعوة صريحة إلى عيادة المسلم المريض ، وفي الثاني دعوة إليها باعتبار بركتها ، ودعوة إلى هذا الدعاء المبارك ، وصلاة سبعين ألف ملك على عائد المريض أو ضمان المعافاة للمريض لمجرد كلمات تقال : حكم غريب يفجأ الخاطر وقد ينكره ، ولذا ساقه الحديث قويًا مزيلاً لما يثار ضده من

---

(١) لها نظائر فى القرآن لا تصل إلى حد الظاهرة كقوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود:٦) .

(٢) التاج الجامع ٢/٣٥٠ (٣) المرجع السابق ٣/١٩٧

انفعال أو شك وذلك بالنفي والاستثناء ، والمنفي نكرة مسبوقة بمن المؤكدة للنفي لجعلها تأخذ شكل القاعدة أو الحقيقة العامة .

التفصيل في المقصور :

ونود هنا أن ننبه إلى سمة خطيرة في القصر النبوي أثارت عقولنا ، وحملتنا على التتبع المتأني ، هذه السمة هي أن في كثير من أحاديث القصر لا يتبع المقصور عليه المقصور مباشرة في النفي والاستثناء ، لكن يتبع المقصور بفيض من الصفات المتلاحقة التي تجذب انتباه المخاطب وتثير أشواقه ، لتتبع الكلام الذي يكون مقصوراً خاصًا بصفات معينة ، وكل جملة تتبعه تزيد هذا الشعور حتى إذا جاء المقصور عليه وقع من النفس موقعاً مطفئاً هذا الشوق أولاً ، ومؤكداً المعنى لغرابته ثانياً ، وتحقيقاً للغرض الداعي إلى الكلام ثالثاً كما في الحديثين السابقين . ونقدم هذين الحديثين :

قال ﷺ : «ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة برحمته إياهم»[1] .

عن عثمان بن عفان ﷺ : عن النبي ﷺ : «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ، إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم يأت كبيرة وذلك الدهر كله»[2].

وفي الحديث الأول : تقدمت الصفة (من الناس) على الموصوف النكرة «مسلم» المتبوع بالوصف «يتوفى له ثلاثة» وصراحة النفي وعمومه يشد الانتباه والشوق ويثير شعور العطف عند المخاطب ويؤكد النفي ، ثم تأتي العبارة «لم يبلغوا الحنث» بالاحتراس المقلل من العموم تثير مزيداً من اللهفة والعطف ، وإن كان الوجدان يركن إلى جزاء طيب ، يأتي بعد أداة الاستثناء «إلا» قصراً للمسلم في هذه الحالة السابقة على إدخاله الجنة دون النار ، قصر

---

(١) التاج الجامع ٢/٥

(٢) المرجع السابق ١٢/١٢١

موصوف على صفة ، وهو جزاء لا مفر منه أثر الصفات التي تبعث المقصور وأفادت الترشيح ، والتمهيد ، والتبرير للحكم الذي ارتفع بالجزاء قمة تتناسب مع قوة الترغيب في الصبر على وفاة الأولاد .

والحديث الثاني : تتوالى صفات المقصور «امرئ مسلم» تواليا زمنيًّا تتعاقب فيه الأحداث التي تمهد للجزاء الذي جاء مقصوراً عليه تحقيقاً له ، وحبساً للمقصور عليه ، فلا يتعداه وقد وضح أن الجزاء في الحديثين مرغب فيه وفي سببه من صبر وصلاة ، ثم لأن الجزاء غيبي وجزيل وجب تحقيقه بالقصر الخاص .

التفصيل في المقصور عليه :

سبق التفضيل في المقصور إثارة للشوق وتبريراً للحكم واستيفاء لأجزاء المقصور لكن قد يفصل في المقصور عليه لإتمام المعنى ، وانصباب الاهتمام عليه ، وتعلق الغرض به .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا من ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[1] .

وعنه عن النبي ﷺ «ما من مسلم يلبى إلا لبى من على يمينه ومن شماله من حجر أو شجر أو قدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا»[2].

فالمقصور عليه (ملكان ، مسلم) اسم موصوف وعطف عليه جمل تبين سر الترغيب والترهيب مع ما في الأول من أحداث غيبية مثيرة تقتضي تحقيقها بطريق القصر .

كما نجد هذا التفصيل الغيبي الطريف في التجاوب المشرق بين الملبي ومظاهر الطبيعة ، إن الإشعاع الوجداني يمتد فيجعل الكون كله في هيام وضراعة ، ولما كان الحكم على جلاله وطوله غريباً أداه القصر .

---

(١) التاج الجامع ٤/٢ (٢) المرجع السابق ١٢١/٢

تأكيد حقيقة غيبية وصفية :

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يؤمئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»[1].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2].

ونبي الرحمة عليه الصلاة والسلام قمة في التواضع حتى وهو يحدث بنعم الله نلحظ ذلك في تكرار اللازمة «ولا فخر» ولبيان أنه سيد الأولين والآخرين يأتي القصر تدعيماً للحقيقة وردًّا لإنكار وجد أو افترض من لا يدين بالإسلام ، وقد أتى الظرف والبدل وما عطف عليه «يؤمئذ آدم فمن سواه» تمهيداً وتقوية للقصر ، وهو من قصر الموصوف (الأنبياء) على صفة (أتباع محمد ﷺ) والوقوف تحت لوائه ، والقصر في الحديث الثاني يبين تنوع المعجزات ومناسبتها لمن سيقت إليهم وهو أمر خاص بتاريخ الأمم والشعوب ، وتنوع عقلياتهم ومواهبهم ، وذلك أمر يحتاج إلى تأكيد ، فجاء القصر لبيان هذه الحقيقة النادة عن العقول ، قصر كل (نبي) على إعطائه معجزة يؤمن عليها البشر ، تحقيقاً لهذا الحكم وتمهيداً للأهم وهو بيان معجزة النبي محمد ﷺ ، ولما كانت المعجزات قبله قد سلفت وانتهت بموتهم جاء النفي والاستثناء مؤكداً هذا الحكم الغيبي أو التاريخي ، لكن لما كان وحي السماء معجزة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام قرآناً يتلونه جاء القصر بإنماء لبيان نوع المعجزة المحمدية وأنها وحي من عند الله لا من غيره ، تعريضاً بوجوب اتباعه لأن معجزته جديدة دائماً تتحدى على الزمن .

---

(١) التاج الجامع ١٦٣/٤ (٢) المرجع السابق ٢٢٨/٤

تحقيق الجزاء المثير :

وقد يحقق الجزاء بطريق القصر ، ويكون غيبيًا مثيراً للدهشة ، والغرابة فيؤكد بالقصر نفياً لكل شك ، وتثبيتاً للحكم ترغيباً أو ترهيباً :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»[1].

عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى يوم القيامة أعظم ما تكون وَأَسْمَنَهُ تطؤه بأخفافها ، وتنطحه بقرونها ، كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس»[2].

فرد روح النبي ﷺ ليرد السلام على من يسلم عليه قد يغلفه توهم الريب فأكد الحكم مع صياغة الأسلوب وسوقه سوق الحقائق ترغيباً في التعبد بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ كما أمر الله ، ويخيل إليَّ أن في الحديث إيماء إلى حياة النبي في قبره لأنه لا تخلو لحظة يصلي فيها مسلم على نبيه عليه الصلاة والسلام .

والحديث الثاني وعيد لمن لم يؤد زكاة أمواله ، ولما كان المقام للوعيد والترهيب نجد هذه الصورة التي يتابعها الخيال بشغف ورعب ، والصورة مؤكدة تنفي كل شك ، كما نلاحظ التفصيل في الطرفين إثارة للشوق ، وتحقيقاً للمعنى ودعماً للغرض .

لقطات من القصر الحقيقي :

عن عائشة رضي الله عنها : من رقية رسول الله ﷺ «اللهم رب الناس مذهب البأس ، اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت شفاء لا يغادر سقماً»[3].

---

(١) التاج الجامع ١٨٩/٢ (٢) المرجع السابق ٩/٢

(٣) المرجع السابق ٢١٤/٣

عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ من قوله إذا قام إلى الصلاة : «اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت»[1] .

وقصر الشفاء أو الهداية لأحسن الأخلاق ، وصرف سيئها ، قصر ذلك على الله تعالى حقيقي لا يتعداه إلى غيره ، وفيه تفويض ولجوء كامل وثناء وتمجيد بما هو مختص به سبحانه دلالة على الاقتدار والعظمة وطمعاً في تحقيق الدعاء .

لون آخر من النفي والاستثناء :

ونقصد هنا ما بمعنى النفي من استفهام ، ونرى ما أضافه الاستفهام بدل النفي الصريح من اعتبارات خاصة إلى الأسلوب والمعنى :

من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به قال : ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»[2].

عن طلق بن علي قال : قدمنا على رسول الله ﷺ فجاء رجل كأنه بدوي فقال : يا نبي الله ما ترى في مس الرجل ذكره بعد ما يتوضأ فقال النبي ﷺ «هل هو إلا مضغة منه أو بضعة منه»[3].

عن أبي سعيد الخدري ـ في رواية ـ عن النبي ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم ، قلنا يا رسول الله : كفارس والروم ، قال : ومن الناس إلا أولئك»[4].

وحديث معاذ يوضح أثر اللسان في إيراد صاحبه النار ، ولقد سأل معاذ مستفسراً بشكل ساذج فكان الرد ـ له ولغيره ـ قويًا مثيراً مفترضاً في المخاطب

---

(١) التاج الجامع ١٨٣/٢
(٢) المرجع السابق ٢١/٥
(٣) المرجع السابق ٩٨/٢
(٤) المرجع السابق ٤٣/٢

قوة البديهة وكان التعبير «ثكلتك أمك» ذلك الذي يقال عند التوجيه واللوم . وكان الجواب في صورة استفهام فيه معنى النفي الإنكاري ليحصر أسباب كب الناس ـ على وجوههم في النار ـ على كلام اللسان . وهو حصر ادعائي يقوى ـ مع الإثارة النفسية التي أوجدها الاستفهام ـ الترهيب من اللسان وآثاره .

ثم نرى صياغة الجواب في صورة سؤال لباقة في العرض وشحذًا للذهن وإعمالاً للفكر وكل هذا يؤكد المعنى فوق تأكيده بالحصر ، ومثل ذلك في الحديث الثاني : «هل هو إلا بضعة منه» وكان هذا أول الدعوة تيسيراً أو هو خاص بالأعرابي سعة عليه ، ومع الإثارة تلمح العتب الرفيق ذلك بأن من يتوضأ لا يقصد من وراء المس غرضاً خسيساً وإن هي إلا حركة عشوائية ، وإلا ما توضأ ليصلي لله .

كما نجد ذلك أيضاً في التعبير «ومن الناس إلا أولئك» وكأن المخاطب حين يسمع صدر السؤال يتوهم أنه حقيقي ، فيسرع باستحضار جواب يناسب حتى إذا أوشك معرفته جاء باقي الأسلوب مرسخاً اعتقاده أو ناسخه ، وهنا يمكن المعنى بشدة ، وبطريق أخص .

«إنما» :

لها استعمالاتها الخاصة في البلاغة العربية لمن يتذوق مجالها البياني

إنما في الأمر الخفي :

ونقدم هذه المجموعة من الأحاديث :

روى النسائي عن رسول الله ﷺ بسنده «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»[1].

من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ «أما التثاؤب فإنما هو من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان»[2].

---

(١) التاج الجامع ٣٥٩/٤ (٢) المرجع السابق ٣١٩/٢

عن سهل أن النبي ﷺ قال «إنما الأعمال بالخواتيم»[1].

وتلك الأحكام التي تحملها الأحاديث فيها خفاء وبعد عن عقل المرء، وخياله، فانتصار الأمة بسبب ضعفائها، وكون التثاؤب ـ وهو حركات عضوية ـ من الشيطان والحكم على الأعمال بخواتيمها، كل هذه أمور لا شك ـ خفية، ولكنها نزلت منزلة الجلي الواضح الذي لا يستدعي شدة في التحقيق لاعتبارات المقام:

فالضعفاء يجب رعايتهم لأنهم متصلون بالله، وهو مالك الملك ينصر هذه الأمة بسبب الضعفاء وحدهم، والاقتصاد في التأكيد أدعي للإثبات هنا كأن هذا شيء متعالم، وفي هذا منح فرصة للفكر يتأمل، وللترغيب يترسب في ثبات.

وفي التثاؤب نجد تنزيل «إن التثاؤب من الشيطان» منزلة الأمر الظاهر المعروف دعوة لامتثال التوجيه بمقاومته لا سيما أنه منفر شكلاً ومنفر أصلاً لأن الشيطان سببه ومن ورائه.

أما الأعمال الإنسانية، والسلوك البشري وتأجيل الحكم عليها حتى خاتمتها فهو أمر ناقش فيه الصحابة ومن بعدهم كثيراً دلالة غرابته وخروجه عن الإرادة الإنسانية لكن البيان النبوي يجعله من الأمور المقدرة التي لا تستأهل شدة تأكيد، حثًّا على الاستمرار في العمل الصالح لأن بدء العمل ومسيره يدل على الخاتمة، ومن يعرف الخاتمة؟ إنها آجال معلقة في الغيب تنتهي بمقدار، فليجد المرء فالحقيقة ناصعة والعمل بالخاتمة. وإخراج الأسلوب على غير ما يتوقع المخاطب جذباً لانتباهه، وإعمالاً لفكره حتى إذا اكتملت صورة المعنى ثبتت فيه واستقرت وهذا أمر عناه السكاكي رحمه الله بقوله «والأصل في إنما أن تستعمل في حكم لا يعوزك تحقيقه، إما لأنه في نفس الأمر جلي، أو لأنك تدعيه جليًّا»[2].

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٧٠

(٢) مفتاح العلوم، للسكاكي ص ١٤٢

ويلحق بالغيبى المتخيل والمتوهم ، فيدعي جلاؤه ووضوحه لغرض بياني جليل ، عن سهل ابن الحنظلية عن النبي ﷺ : «من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من النار»[1].

وعنه ﷺ «إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس ، فأراد أحد أن يجتازه بين يديه ، فليدفعه ، فإن أبي فليقاتله ، فإنما هو شيطان»[2] والجزاء في الأول ممتد ، والاستكثار من مال يؤدي إلى النار في الآخرة أمر متخيل ، لكنه أتى بإنما وعيداً ، كأنه لجلائه لا يحتاج مزيداً من التوكيد وفي الثاني قصر للمار بين يدى المصلي على أنه شيطان وهذا من سحر البيان الذي يجعل المتوهم حاضراً جليًا .

إنما في الأمر الجلي :

غشي على سعد بن عبادة فبكى الرسول ثم قال «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[3].

عن النبي ﷺ «ما من ثلاثة في قرية ، ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»[4].

وعنه ﷺ «إنما الاستئذان من النظر»[5].

وفي الأول : قصر رحمة الله على الرحماء دون القساة الأشداء ، قصر قلب وهذا يفيد جواز البكاء وأنه رحمة ، ثم التعريض بالقاسية قلوبهم واعتبارهم أشداء . هكذا واعتبارهم أشداء ، يخاف عليهم غضب الله ، مع الدعوة إلى الرحمة كقيمة إنسانية عامة ، وفي الثاني : قصر آكل الذئب على القاصية من الغنم تحذيراً من الابتعاد عن الجماعة وتعريضاً بمن ينفرد عنها : غير مضطر - بأنه فريسة للشيطان ، وفي الثالث : يقصر مشروعية الاستئذان على النظر

---

(١) التاج الجامع ٣١/٢
(٢) المرجع السابق ١٧٢/٢
(٣) المرجع السابق ٣٨٠/٢
(٤) المرجع السابق ٢٥٠/٢
(٥) المرجع السابق ٢٣٩/٥

وحده ، ذلك أن العورات تنكشف بالعين للعين تعريضاً بغباء من يستأذن وهو ينظر ، كأنه لا يدرك لماذا شرع الاستئذان ، وفيه تحديد لسبب الحكم وأنه النظر وحده دون سواه من الجوارح .

قال الإمام عبد القاهر عن إنما « إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه »[1].

ولا يخفى أن الدلالة غير المباشرة ، أو الإيحاء الموجه له أثره في النفوس ، والعقول ، وفي الأساليب تفنناً وإمتاعاً ، وفي المعاني والأغراض قوة ، وتدعيماً .

القصر بحرف العطف :

وقد يكون الأسلوب هادئاً مطمئناً يلقى على مهل ، ويوضح توضيحاً وئيداً ويؤكد بالقصر في أمور تحتاج هذا التأني ، ذلك أن فيه نصًّا على المنفي والمثبت في قرن واحد يلحظ العقل ارتفاع النفي ، ويترقب الإثبات الذي يقدمه الأسلوب في هدوء وقوة .

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء » قلنا يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله ، قال « ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى »[2].

عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا ألا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك »[3].

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني ٢٣٩ (٢) التاج الجامع ٥/٦٠

(٣) المرجع السابق ٥/١٦١

وفي حديث الحياء ينفي ما يعرفون عن الحياء «ليس ذلك» وبالنفي يبدأ تشوف المخاطب واهتمامه ، فتأتي الأداة تثبت ـ بعد هذا النفي ـ ما أراده الحديث : من تقديم مفهوم جديد للحياء ، ولما كان هذا ذا شعب ، وكان على درجة من الخطورة لارتباطه بالسلوك الفردي والجماعي اقتضى المقام النص على المنفي لأنه ثبت بالعرف في عقولهم ، ثم تقسيم هذا المثبت إلى أضرب في عبارات إيقاعية تساهم على ترسيخه في النفوس . وفي حديث الزهادة : ينفى أيضاً مفهوماً متعارفاً ، وفي هذا لفت للأذهان ثم يأتي الإثبات وفيه تقديم مفهوم جديد مثير ، وإطالة المنفي تشويق إلى المثبت الذي استقر بمقابلة الصفات من ناحية ، وبجديته وطرافته وقوة تأثيره من ناحية أخرى ، ونلاحظ أن لكن في الحديثين أتت بعد حرف عطف «الواو» فهي للاستدراك ، وهو يفيد القصر ، باعتبار النفي المتقدم وإثبات عكسه بها .

وفي العطف بالحرف «بل» نقدم هذين الحديثين :

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال «بئسما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسي»[1].

عن عدي بن حاتم قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان؟

قال : إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال : «لابل هو سواد الليل وبياض النهار»[2].

والأول يوضح ما ينبغي أن يكون من الأدب الإسلامي حتى في الألفاظ إزاء الحديث عن القرآن فنسبة النسيان إلى المسلم جراءة لا تليق ، وبئس هنا للذم وفيه معنى النفي كأنه قال لا يقل أحدهم نسيت ، وأتى بالمقابل المتشوق إليه مثبتاً بعد «بل» التى أضربت عن الأول ، وهو قصر قلب أثبت الإنساء تأدباً لا النسيان المذموم ، وما أبرع لفظ «أحدهم» بصيغة التجهيل زجراً ونفوراً ،

---

(١) التاج الجامع ٨/٤ (٢) المرجع السابق ٢٦/٤

وفي حديث عدي نجد الكناية المبدعة عن الغباء مداعبة ثم يأتي التأويل الجاد : بل هو سواد الليل وبياض النهار قصر قلب لاعتقاد المخاطب لا يتعداه إليه .

كما نجد في البيان النبوي لوناً غريباً من القصر قامت فيه إنما مقام بل :

عن أبي قتادة قال : ذكروا للنبي ﷺ نومهم عن الصلاة فقال : « إنه ليس في النوم تفريط ، إنما التفريط في اليقظة »[1].

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »[2].

وطريقة الأسلوب تثير التساؤل عن المخاطب بعد العبارة « ليس التفريط في النوم » و « إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً » فمتى وأين يكون التفريط إذن ؟

وما ورث الأنبياء ؟ ولذا جاء الجواب مفصولاً مصدراً بإنما قوة في التأكيد تربو على « بل أو لكن » ففي إنما قصر مستقل وفي مقابلة المثبت بالمنفي قصر ثان لأنه مقام الإدلاء بحكم تشريعي جديد في الأول وترغيب في العلم في الثانى وكفي به مقاماً تتزاحم فيه التأكيدات ، وهكذا في كل نظير .

وبعد :

فقد اتضح لنا انفراد القصر النبوي بميزات وسمات خاصة لم تتوفر لغيره ، ذلك أن الأسلوب روح صاحبه ، وقد كانت مقامات الأحوال ، والحالات النفسية ومقتضيات التشريع هي التي توجه إلى هذا النحو السابق من العرض الأدبي ضماناً للتأثير بالجمال الفني والإقناع بالتأكيد والقصر العقلي .

* * *

---

(١) التاج الجامع ١٤٧/٢ (٢) المرجع السابق ٦٣/٢